رسائل ثقافية

العراق : من بدر شاكر السياب

لم يسمع احد، لا في القصص ولا في التاريخ، عن شاعر امسك بمعزفه وراح يتغنى بحبيبته عند منزل يلتهمه الحريق ، ثم يصر على الناس المنهمكين في اطفاء الحريق ان يتمهلوا قليلا ليستمعوا اليه. هكذا يكون حال الادباء غير الملتزمين في العراق لو انهم طالبوا الصحف الوطنية بان تخصص جزءاً من صفحاتها لما يكتبونه من شعر غزل او قصص غرام او تأملات صوفية ، بدلا من ان تكرسها لما يساعد الشعب والسلطة الوطنية على حل كثير من المشاكل التي خلفتها العهود المظلمة التي سبقت ثورة ١٤ رمضان الوطنية . يكفيهم ما يحسون به من الم حين يرون تخلفهم عن قافلة العاملين من اجل غد افضل . لكن توقف الاديب عن الانتاج معناه موته . انهم ما زالوا ينتجون ، وان كانوا لا ينشرون شيئا من نتاجهم ذاك - داخل العراق على الاقل . وحين يجمع ركن في مقهى او زاوية في مشرب عددا من هؤلاء الادباء غير الملتزمين ، يرون في اجتماعهم هذا فرصتهم الوحيدة في « النشر » داخل العراق : فيقرأ بعضهم لبعض آخر ما انتجه ، ويتناقشون معا فيما يعتبرونه « مشاكل الادب » . واهم مشكلة من هذه المشاكل ، فيما يرون ، هي مشكلة الالتزام واللاالتزام في الادب . لقد طال الحديث عن هذه المشكلة منذ عهد بعيد ، وبلغ ذروته منذ ظهور كارل ماركس وفلسفته المادية . وحين تجسدت الماركسية في نظام دولة معين وفي احزاب معينة ، اجملت نظرتها الى الادب فيما يشبه هذا الشعار : «ما لا يعين على اشباع جائع او اكساء عريان ، وما لا يصلح ان يكون سلاحا من اسلحة الحرب، فلا داعي له. وكل ما لا داعي له فهو ترف برجوازي تجب محاربته » . ومع ان الشيوعية قد سحقت في العراق ، فان نظرتها الى الادب ما تزال هي السائدة : اذ قد تبنتها العناصر القومية دون ان تشعر .

لقد توصل الادباء العراقيون غير الملتزمين الى حل وسط لهذه المشكلة . فهم ليسوا ضد الالتزام ولا معه دون قيد او شرط . المهم ، عندهم ، ان يكون الادب « جيدا » حسب المقاييس الفنية التي لا علاقة لها بالسياسة . ليس موضوع الاثر الادبي هو المهم ، وانما تفاصيل اخراج ذلك الاثر هي المهمة . ان هذه النظرة هي ، في الحق ، النظرة الاصيلة لنظرية الفن للفن .

ومع ان الميدان قد اخلي ومهد للأدب الملتزم ، فليس لذلك الادب الملتزم من اثر . كل ما هنالك بعض القصائد القليلة ، التي تنشر بمعدل قصيدة قصيرة واحدة في الشهر ، وبعض المقالات التي تتحدث عن « الالتزام » في الادب .

السبب في ذلك يعود الى عاملين : اولهما ان حكومة الثورة رأت الاستفادة من مواهب الادباء فأسندت الى الكثيرين منهم مناصب مهمة في وزارة الارشاد (شفيق الكمالي ، عبد الجبار داود البصري ، شاذل طاقة ، خالد علي مصطفى ، محمد جميل شلش، وسواهم)، ومهام الوظيفة تأخذ القسط الاعظم من اوقاتهم وتستنزف معظم جهودهم . اما العامل الثاني فهو ان امكانيات النشر ما تزال محدودة . ليس اليوم في العراق سوى اربع جرائد سياسية اوخمس ، وغير مجلتين شهريتين صغيرتين تصدر مديرية الارشاد اولاهما وتصدر نقابة المعلمين الاخرى . هناك ، بالطبع ، مجلات اخرى تصدرها

شتى النقابات العمالية ، لكنها مجلات لا علاقة لهـــا بالادب . لذلك كانت زيارة الدكتور سهيل ادريس، صاحب مجلة « الاداب » ، للعراق فرصة لبعض الادباء العراقيين لان يتعاقدوا معه على نشر نتاجهم. فقد اتفق الدكتور ادريس مع الشاعر محمد جميل شلش على طبع ديوانـــه الاول المسمى « الحب والحرية » ، كما اتفق مع القاص عبد الله نيازي على اصدار مجموعته القصصية « اعراس الدم » . ومن الكتب الجديدة التي ستصدر قريبا ديوان للشاعر شاذل طاقة سماه « ثم مات الليل » وسيصدر عن دار الحياة ببيروت .

وقد صدرت ، قبل هذا ، بعد ان زال عن العراق الكابوس الذي كان يخيم عليه ، عدة دواوين لشعراء عراقيين قارعوا حكم قاسم بشعرهم ، منها ديوانان للشاعر عدنان الراوي هما « من القاهرة الى معتقل قاسم » و «المشانق والسلام» ، وديوان للشاعر هلال ناجي اسمه « الفجر آت يا عراق » ، وديوان « طعام المقصلة » للشاعر علي الحلي . كما اصدر هلال ناجي ايضا دراسة عن فلسفة الزهاوي وشعره وسماها « الزهاوي في ديوانه المفقود » . لكن الاستاذ عبد الجبار داود البصري ، وهو شاعر مبدع وواحد من اكبر النقاد العراقيين القلائل ، لما يجد ناشراً لكتابيه « نجيب محفوظ في القصة القصيرة » و « مفهوم الحركة في الشعر »، وهو دراسة في المذاهب الشعرية المختلفة .

وتكرس جريدة « الجماهير » ، وهي اكبر الصحف الصادرة الآن في العراق واوسعها انتشارا، زاوية خاصة بالادب على احدى صفحاتها . وقـــد استفتت « الجماهير » عددا كبيرا من الادباء العراقيين فيما اذا كان ادباء العراق « على مستوى الثورة» . وكاد هؤلاء الادباء يجمعون على ان ادباء العراق لم يكونوا على مستوى الثورة ، « وان كان ثمـــة ادب يعبر عن الثورة ، متفاوتا في القيمة والنجاح » . وقـــد عزي ذلك الى جو الارهاب النفسي والبدني الذي كان الادباء العراقيون يعيشون فيه كجزء من الشعب . وكانت كتابة قصيدة تتحدى الظلم او قصة تتحدى الارهاب تعني - وان كانتا مخبأتين لا تنشران - تعريض كاتبها نفسه للاعتقال والضرب والسجن والفصل من العمل ، حتى وان لم يكن ذلك العمل حكوميا . وان نشر الاثر الادبي يشكل الحلقة الاخيرة من عملية الخلق الادبي.

ولعل اجابة الاستاذ جلال السامرائي لهذا الاستفتاء اعمق الاجابات كلها واشملها . يرى الاستاذ السامرائي ان « ادباءنا شاركوا في ايقاظ الوعي الثوري ولكنهم لم يكونوا بمستوى الثورة»، وان « ثورتنا كبيرة وادباءنا في طريقهم الى ان يكونوا ادباء كباراً» . ولعل احداً لم يحلل موقف الادباء الشيوعيين في العراق تحليلاً واضحاً كما فعل الاستاذ السامرائي حين قال : « اننا مدعوون ، لكي نجيب عن موضوع الاستفتاء ، ان نقرر بأن الادباء الشيوعيين حين فقدوا اي ارتباط بالجماهير وحينما لم يعد بوسع احد منهم الادعاء باخلاصه للفلاحين الكادحة من شعبنا ، وعندما شخصهم شعبنا باسمائهم كجناة تلوثت ايديهم بدمائه ، سقطوا في خيـــانة جديدة ذات وجهين : الاول يمكن ان ندعوه فاشياً، كان الجواهري فارسه الاول؛ والآخر اتجاه فريد ، على ما اعتقد ، نلمسه بوضوح في اشعار عبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف ورشدي العامل وآخرين غيرهم ، هو محاولة التقرب - بحذر - من مصالح الجماهير ومعتقلات الارهـــاب ومأساة الانسان الجائع المضاع في بلادنا . هذا الموقف المتردد الحذر هو نتيجة اكيدة لشعور هذه الفئة بانها شريكة ، بشكل او بآخر ، لمصابات التقتيل الوحشي الذي مزق المئات من ابناء شعبنا . وقـد سجل البعض نتيجة هذا الاضطراب والشعور بالعزلة عن الجماهير ، مواقف في غاية الغرابة : فعبـــد الوهاب البياتي لم يعد يؤرقه شيء غير ابن ناظم حكمت واسطنبول وعمال مرسيليا والعلم الاحمر في برلين الشرقية والعمال الذين تنثر عليهـــم موسكو وفرها الابيض وتعبيره عن انه لا يحب البير كامو لانه لا يحب الاتحاد السوفييتي . هذه الهلوسة ليست امية على اية حال . ان عبد الوهاب البياتي يسجل،

بشكل واضح ، مأساة مجموعة من الادباء فقدوا الارتباط التقليدي بأية جهة » .

وبمناسبة وجود الدكتور سهيل ادريس في بغداد طرح المحرر الادبي لجريدة «الجمهورية» عليه عدة اسئلة تتناول موضوع الادب العربي بصورة عامة، والادب العربي الثوري بصورة خاصة . وقد جاءت في اجابات الدكتور ادريس نقاط لا يصح ان تمر دون مناقشة . ففي اجابته عن سؤال عن « اوجه التطور الادبي في الوطن العربي في فترة صدور مجلة (الاداب) »، قال الدكتور ادريس : « لا شك ان الادب العربي الحديث قد شهد تطورات كثيرة في السنوات العشر الماضية ، لم تكن (الاداب) هي المجلة الوحيدة او الميدان الوحيد الذي عبر عنها . ولكن المجلة ، كما يبدو ، قد شاركت في خلق تيار جديد كانت له سماته وميزاته ،هو تيار الادب الملتزم الذي يتبنى الدفاع عن قضايا الشعب العربي الرئيسية من خلال الشكل الادبي ، سواء اتخذ هذا الشكل ثوب التعبير الوجودي او الواقعي الاشتراكي . وقد حقق تطوراً جديداً لم تكن له الا بذور ضعيفة في الانتاج السابق . واحسب ان (الاداب) قد استطاعت ان تميز هذا الادب الملتزم من الادب الالزامي الذي كانت تنتجه الفئات الشيوعية تقليداً ومحاكاة » .

قبل ان نناقش اجابة الدكتور ادريس لا بد لنا من تفسير ما يعنيه بقوله «واحسب ان (الاداب) قد استطاعت ان تميز هذا الادب الملتزم من الادب الالزامي الذي كانت تنتجه الفئات الشيوعية » . انه يعني ان كل الادباء الشيوعيين ينتجون ادبهم وهم مكرهون على ذلك ، بينما ينتج الادباء القوميون ادبهم بمحض اختيارهم . قد يصح هذا القول في الادب الذي ينتجه ادباء يعيشون في بلدان تتولى الاحزاب الشيوعية السلطة فيها . ومع ذلك فان السلطة في مثل تلك البلدان لا تستطيع ان تمنع اديباً كباسترناك من ان يكتب روايةكـ «الدكتور زيفاغو » ، لكن مثل تلك الرواية لا يمكن ان تجد من ينشرها داخل الاتحاد السوفييتي . ان الالزام يكون عن طريق سد ابواب النشر في وجه كل ادب لا ترضى عنه السلطة، ومهاجمته واتهام منتجه بشتى التهم التي يحفل بها القاموس الشيوعي . اما الادباء الشيوعيون الذين يعيشون في بلدان لم تتسلم الاحزاب الشيوعية السلطة فيها ، فليس هناك من يكرههم على انتاج ادبهم « الملتزم ». انه ينبع من مجرد مفهومهم لمعنى الادب ومهمته : سلاح في النضال الطبقي ؛ المضمون الثوري هو المهم ، اما الشكل فقشرة بلا قيمة . فأي فرق بين موقف اديب شيوعي من هذا النوع وبين موقف اديب عربي ينتج ادباً يندد فيه بنظام الحكم في بلده او اي بلد عربي آخر ويدعو الى الثورة عليه ؟ ان ادبه – كأدب زميله الشيوعي – نابع من مفهومه لمعنى الادب وانه مجرد سلاح في النضال القومي (بدلا من النضال الطبقي) ؛ وان المضمون الثوري هو المهم ، اما الشكل فقشرة بلا قيمة . لكن اصرار بعض الفئات على محاربة كل ادب لا يلتزم بالقضايا التي تريد للادب ان يلتزم بها ، يرقى الى صعيد احالة الادباء الى ما يشبه وضع الادباء الذين يعيشون داخل الستار الحديدي.

ان الاثر الادبي او الفني يشبه اللؤلؤ ، وان عملية الخلق الادبي تشبه الى حد كبير عملية انبثاق اللؤلؤ وتولده داخل المحار : حين يدخل الى المحارة جسم غريب يحدث في انسجتها الداخلية التهاباً يجعلها تحيط ذلك الجسم الغريب بما نسميه فيما بعد لؤلؤة . وفي الامكان ادخال جسم غريب الى المحار بالاكراه ،لاحداث الالتهاب وتوليد اللؤلؤة. لكن مثل ذلك اللؤلؤ ان يكون الا صناعياً ، لا يداني اللؤلؤ الاصيل في الجودة .

فالملتزمون يرون ان كل الاحداث والافكار السياسية والاجتماعية تصلح لأن تكون مواضيع للانتاج. اما غير الملتزمين فيرون ان بعض التجارب التي تمر بالاديب ، بعضها وحسب ، يصلح لان يكون موضوعاً للانتاج: ولا يهم، بعد ذلك، ان تكون التجربة سياسية او غرامية او اجتماعية او فلسفية او سواها .